وجهات نظر

عن الشاعر والتزاماته القومية وخيانة المفكرين وموقف المثقف الفلسطيني من قضية بلاده

سلمى الخضراء الجيوسي

هل على الشاعر والفنان مهمة وواجب تجاه القضايا القومية ؟

ان التزام الشاعر والفنان هو دوما بالمصير الانساني ، ورؤياه يجب ان تكشف له ، اذا كانت منبثقة عن حدس صادق ، ابعاد الفاجع في الحياة . هذه الحياة هي دوما الحياة حوله . فهو ان كان اصيلا استشرف في انتاجه روح عصره العميقة وتطلعات الانسان حوله واشواقه ومنابع قلقه . انه ، حتى لو تخطى روح عصره ، يحملها معه ، يبدعها من جديد ابداعا مبنيا على جوهرها . اذاً فكل فنان اصيل مبدع عندنا ملتزم بقضية المصير العربي . قد تختلف رؤياه عن سواه ، وفي اختلافها غنى للفن وللقضية ، ولكنها تظل دائما رؤيا صادقة ما دامت تصدر عن فنان اصيل مبدع .

ولذا فكلمة « مهمة » في هذا السياق تبدو منفصلة عن واقع العلاقة بين الفنان وعصره ، وكأن التزامه وظيفة يمكن قبولها او رفضها . الالتزام الفني لا علاقة له بالارادة وبالتصميم على اداء واجب معين . انه التزام ينبع من اعماق الفنان المتفتحة دوما لتلقي المؤثرات ، المنكشفة ابدا على الفاجع في الحياة حوله وعلى نوازعها العميقة .

اني ارى ان مشكلة الالتزام في الفن (وهذا يختلف عن الالتزام الفكري) هي مشكلة اصالة وموهبة وعمق انساني — لا مشكلة تثقيف وتصميم على اداء واجب قومي .

المهمات الملقاة على عاتق مثقفينا ازاء القضية الفلسطينية كثيرة . ولكن المثقفين قوة غير منظمة في العالم العربي . اننا لم نفد ، على الصعيد الثقافي ، من تجربتنا المريرة . لقد دحرتنا مطالب الحياة وقهرتنا ظروف العالم حولنا ؛ فلم نحاول ان نعيش قضيتنا كمثقفين . ولقد كان على المثقفين الفلسطينيين، بصورة خاصة ، اذ وجدوا انفسهم في متاهات المنفى، ان ينذروا جزءا كبيرا من جهدهم لقضيتهم. وبدل ان يتركوا العالم حولهم يغزو انفسهم ويهتك سياجاتها ويستعبدهم بشروطه ومتطلباته الجهورية وحدوده الخشنة ، كان عليهم ان يكتلوا المواهب اللامعة بينهم ويدفعوها نحو التخصص والتعمق والتآزر ثم فرض نفسها على العالم حولها كقوة متحدة واعية في خدمة القضية . كان يجب ان يكون للقضية كيان ثقافي يساعد الموهوبين على التخصص في خدمة جميع وجوهها — عسكريا ، قانونيا ، اقتصاديا ، تاريخيا ، جغرافيا ، سياسيا ، اجتماعيا ، وفوق كل شيء ، وطنيا . وان يكون هؤلاء المختصون قوة دافعة يعتمد على معرفتها وتخصصها ويخشى نقدها واعتراضها وقدرتها المتآزرة على كشف المناورات .

وماذا فعل المثقفون في السنوات الخمس عشرة الماضية بهذا الشأن ؟ صدرت بعض الكتب التاريخية عن النكبة ، وبعض الكتب النقدية التي حاولت

الكشف عن مناحي الضعف والانخـــذال والفساد في الحياة العربية . واستجاب عدد كبير من المثقفين لنداء العمـــل السياسي ، وبينهم نسبة كبيرة من الفلسطينيين الذين وجدوا في العمل السياسي عزاء واملا . ان الفلسطيني ، بطبيعة غربته ، قلق ؛ والقلق يدفعه باستمرار الى التحرك . فهو يدخل في الحركات السياسية استجابة لدافع التحرك الدائم الذي يدفعه اليه قلقه وغربته — انه يسعى، واعيا ولا واعيا ، الى ايجاد حل لمشكلة غربته الطويلة التي لا يسمح له تناسيها في اي بـــلد عـربي . غير ان الفلسطيني ، مهما انضوى ، لا يمكنه ان يجد حله النهائي في العقائدية العربية التي تستهدف بناء العالم من جديد . ذلك لان عالمه الحقيقي مفقود اصلا ؛ ارضه التي يجب ان تنبثق منها كل حركة ثورية ناجحة لا وجود لها على الاطلاق في الزمن الحاضر ؛ ولذلك فعمله السياسي تشوف نحو المستقبل الذي يحمل امكان عودته الى جذوره الراسخة .

ولقد كان على المثقفين ، ان ينظموا فيما بينهم العمل الواعي لجميع ابعاد القضية الفلسطينية ويتحدوا معا على فرض خطورة القضية على الحياة العربية المعاصرة . هذا ما فشلوا في عمله .

أما هل كان المثقف « خائنا » للقضية ؟ فانني ابغض كلمة « خائنا » ، فبالرغم من مدلولها الفادح استعملت في السنوات الاخيرة كتجارة رابحة حتى بلغت اقصى درجات الابتذال . ومع ذلك فلا بد من القول بان بعض المثقفين خانوا القضية . غير انه يبدو لي اجمالا انه ، حتى المثقف الذي يود خدمة القضية ، يائس من العمل لها وكأنه يشك سلفا في امكان حلها . اترى يقوده الحدس المشوش ، ام تفاقم الوعي ؟ لقد كانت رؤيا المثقفين ، فيما يتعلق بالقضية، (ولم تزل)، رؤيا محدودة وضيقة وخالية اجمالا من الذكاء . ولا شك ان المثقف خذل القضية ولم يقدر خطورتها . اعتقد ان المثقف في بلادنا يشعر بشيء من الشلل ازاء « السياسة » و « السلطة ». وبهذا يعكس محدودية الدور الذي يلعبه ، وضيق افقه . انه ، على الاجمال ، منضو في التيارات السطحية المهيمنة على الحياة العربية ، بدل ان يكون رائدا لما في اعماق هذه الحياة من تشوف .

انه ليس ثائرا حقيقيا ، بل تعوزه جرأة الروح والبسالة . لقد ساوم كثيرا ، وانصاع ، وقبل بالتسويات ، وبانصاف الحلول ، وبالمهادنة ، ورضي بالتفسيرات اللبقة التي اعطاها السياسيون دفاعا عن تخاذلهم او تحكمهم . لست اظن ان الانسانية عرفت فترة أسيء فيها استعمال الكلمات ذات الدلالات الكبرى كما أسيء اليوم . ولم ننج ، نحن العرب ، من هذا . فباسم الوطنية ، او الثأر ، او الحياة الافضل ، او الشعب والجماهير ، تعطى التفسيرات « المقنعة » لكل ضروب التعسف والخذلان . ولقد صمت المثقفون ازاء هذا صمتا رهيبا ، مع انهم الوحيدون القادرون على اعطاء الكلمات مدلولاتها الصريحة. ان كل ما فعلوه هو انهم ساندوا السلطـــات ببلاغتهم . لقد تناسى المثقفون مركز السرطان الحقيقي، وسمحوا للدعايات المختلفة ان تغزو بلادهم، واشترك البعض في اغاني التمجيد الكبرى لاشياء لا تعيش في وجدان الامة — كما اشترك البعض الآخر في حملات الاهاجي لعقائد اصبح الشعب يجد فيها حله الوحيد ، كالاشتراكية مثلا . لقد فعلوا كل هذا غافلين عن قضيتهم الاولى ، متناسين الخنجر المغروس في القلب .

وماذا فعلت شخصيا ؟ اعتقد ان عالم النكبة يعيش بكل ابعاده في انتاجي الفني : في شعري ، وفي روايتي التي اكتبها الآن . اما فكريا ، على صعيد الكتابة النثرية ، فلعلي لم افعل ما كان بامكاني فعله في السنوات الاخيرة . ومع اني لم اخذل التزامي الاخلاقي قط ، ولم اسخر قلمي يوما الا لما او لمن به يحكم هذا الالتزام، الا اني آثرت الفن اجمالا على النضال الفكري المباشر . ولكني فنانة قبل ان اكون اي شيء آخر ، واكره السياسة كرها شديدا : فأرضها زلقة مائجة ، بينما ينبع الفن من منابع الروح الاصيلة . فان كان عليّ ان ادخل عالم السياسة يوما (والنضال الفكري لا يمكنه ان يتخطاه) فاني ادخله برعب وأسى .

اما الحل ، الحل المثالي والعملي الواقعي — لكن اترى يختلف الحل المثالي هنا عن الحل العملي الواقعي؟ — فان بينهما فروقا على صعيد الحياة اليومية،

اما عندما نواجه قضية عظيمة فالحل الواقعي هو دوما الحل المثالي . ان خطورة القضية ، وجلالها، وعلاقتها ، لا بالحياة المادية وحدها ، بل باعماق روح الامة ، تجعل اتحاد الحلين امرا محتوما . ان علينا ، في حلنا لها ، ان نكتشف ابعاد روحنا وامكان انتصارها من جديد على منابع خذلانها القديم ومكامن عجزها الفاجع الذي حطمها .

لقد احدثت النكبة في روح الامة فجوة يجب ان نعمرها . وكل ثورة في البلاد العربية كانت تحمل معها املا جديدا بامكان سد هذه الثغرة الروحية، املا جديداً بان تقف الامة، من جديد ، موقف الشرف – وكل خذلان لهذا الشوق النابع من شخصية الامة ذاتها خذلان للثورات انفسها . ان امكان الانتصار على المأساة يجعل من عالم النكبة عالما متأزما وحركيا . فما دام في عالمنا الحاضر حركة تهدف الى البناء والعطاء ، يظل الامل حيا نابضا في الضمير – انه الامل في «غسل العار » اذا اردنا استعمال تعبير عربي صميم ، ولا بد من استعماله هنا لانه تعبير يعيش في لغة امتنا وفي روحها . ان امكان التغلب على المأساة واسترجاع « الشرف المضاع » يجعل التراجع والتخاذل فجيعة جديدة ، لانه يحطم الامل الوحيد في المحافظة على القيم التي اعدنا بناءها في انفسنا بعد الثورات المنبثقة عن النكبة . ان عالم النكبة عالم حزين ولكنه حي ومتوتر ، يختلف اختلافا جذريا عن عالم الموت الذي يختلط فيه اليأس بالاستسلام. فامام النكبة يبدو الاستسلام مستحيلا ، لان فيه خذلانا لجميع القيم التي نؤمن بها . انها قيم لم تزل هشة، تقبع بحذر في انفسنا – قلقة، وصلبة، تخشى الانسحاق من جديد. واي سقوط لهذه القيم سيعني ذروة اليأس وبداءة التشتت والانسلاخ الحقيقي عن واقع برهن على انه لا يستحق الا الازدراء. ان سقوط القيم الحرة ثانية سيعني سقوط الجميع من جديد .

وماذا يحدث في عالمنا ؟ انك اذا راقبت ما يجري تكاد تقترب من حافة الجنون ! يقولون انهم يريدون خدمة التاريخ ! هذه العبارة تضحكني ، فهي تبدو افخم واضخم من المصير الذي تشير اليه . ان علينا ان نصنع انفسنا ولا يهمني ان نقف امام التاريخ او ان ندير له ظهورنا ، فالتزامنا ليس له بل لاخلاقيتنا ولحياتنا ولحاجتنا الروحية. ان القائد الذي يضع «صنع التاريخ» امام منظوره سيلجأ حتما الى مناورات السياسة المفسدة للمحبة وللالتزام الخلقي. ان علينا ان نعشق التزامنا وما ينضوي فيه من اندفاع اريحي ، ان نتناسى « دورنا في التاريخ » ونسكب روحنا كلها وكل هوس قلبنا وعقلنا لبلوغ هدف عظيم . ان الامة العربية ، خلال هذه السنة، تواجه امكان الانتصار مرة ثانية ، ولكنها تواجه ايضا امكان نكبة جديدة صامتة تتسلل اليها بالرغم من اصوات الاعلان الهادرة التي ترهق القلب والروح . والمثقف هنا يواجه دوره الحاسم في اعنف معركة فكرية عرضت نفسها عليه منذ سنة ١٩٤٨ . فالحل السليم لا يمكن ان يصدر الا عن نفوس سليمة – النفوس التي ساومت وجعجعت بشعارات « النضال العربي » دون ان تعيش ساعة من هذا النضال لا يمكنها ابدا ان تقف من قضية فلسطين موقف الشرف . اما المثقفون والرواد فيبدو ان عليهم ، الآن ، في سبيل هذا الموقف ، ان يكونوا مستعدين لمعاداة العالم اللامتجانس الذي يهيمن على الموقف اذا ما راوغ او ابدى وجوه نشازه من جديد . فهل ترى ، اذا حصل هذا ، سيكون للمثقف شرف الاعلان عن موقف ينفيه عن عالمه برفضه لهذا العالم وبالحاحه على حتمية المواجهة الشريفة الحاسمة لقضية فاجعة؟